بقلم: د. جوني منصور*

اخلاقيات الجيش الاسرائيلي في الميزان

تراجع قيمة طهارة السلاح والحفاظ على حياة الانسان

مقدمة

ما زالت قضايا اخلاقيات وسلوكيات الجيش الاسرائيلي مستولية على حيز واسع جدا من المشهد السياسي –الاجتماعي –العسكري الاسرائيلي يوميا، سواء في وسائل الاعلام بأشكالها المختلفة او في النقاشات العامة التي تدور في الاوساط الاكاديمية والشعبية .

ومما لا شك فيه ان هذه القضايا تقض مضاجع رجال الفكر والسياسة على حد سواء كل من منظوره الخاص به.

وما دامت المسألة تتعلق بالجيش الاسرائيلي فإن التطرق لها بموجب المفهوم الاسرائيلي لهو اختراق قدس الاقداس في اسرائيل، اذ ان للجيش الاسرائيلي مكانة خاصة لدى الجماهير الاسرائيلية بغالبيتها العظمى. وتقاس مكانة المواطن الاسرائيلي بعد خدمته الالزامية في الجندية بالوحدة العسكرية التي كان منضويا تحت كنفها، وتزداد مكانته الاجتماعية والوظيفية فيما لو كان مسرحا من احدى وحدات النخب. اضف الى ذلك الصورة الاسطورية التي عملت كافة الحكومات الاسرائيلية والمؤسسات العامة والخاصة على اظهارها في كل ما يتعلق بالجيش الاسرائيلي بكونه حامي الدولة ورافع شأنها ومكانتها في العالم، وان الجيش الاسرائيلي لا يقهر ابدا على ضوء الخبرات الواسعة التي حصّلها في مواجهاته مع جيوش الدول العربية. كل هذه الحالات والاوضاع منحت الجيش الاسرائيلي مكانة مرموقة في الرأي العام والمشهد اليومي والحياتي . وبالمناسبة معظم خطوات الحياة اليومية في اسرائيل لها ارتباط وثيق بالجيش، من التربية الى التأمين الوطني فالخدمات السكنية والتوظيف الخ... بمعنى اخر ان اسس حياة المجتمع الاسرائيلي ليست مبنية على قواعد مدنية صرفة

*محاضر في كلية بيت بيرل

كما هو الحال في اغلب الدول الغربية ، انما على قواعد العسكرة .

سنحاول في مقالنا هذا التطرق الى عدد من المواضيع الساخنة حاليا في الرأي العام الاسرائيلي والتي لها انعكاسات ستلقي بظلالها على وضعية ومستقبل الجيش الاسرائيلي.والقصد هنا مسألة المسائل بالنسبة للجيش الاسرائيلي الا وهي «اخلاقيات الجيش» .

ولا شك في ان السلوكيات والتصرفات التي صدرت مؤخرا عن جنود او ضباط في الجيش الاسرائيلي تعكس بوضوح ان تغيرات معينة تحصل في هذا الجيش . ولا بد لنا من التأكيد ان مواجهة الجيش الاسرائيلي للمقاومة الفلسطينية بكافة اشكالها ، وعلى الاخص الجانب المدني منها عكست صورة الجيش الاسرائيلي وعرّته امام العالم بكونه جيشا يفتقر الى ابسط أسس الاخلاقيات العسكرية التي تتمتع بها الجيوش الاوروبية والغربية عامة.

لقد قام احد ضباط الوحدة بالتقاط صور الجنود بكاميرته الخاصة وهم يقومون بالتنكيل بجثة الفلسطيني، وبعد الانتهاء من هذا المشهد اعلن الضابط عن بيع الصور بمبلغ رمزي، وتقدم عدد من الجنود لشراء الصور، وقالوا ان هذا امر رائع وجذاب». وتشير الصحافة الاسرائيلية الى ان هذا الحادث ليس الوحيد ولكنه الخطير بين سلسلة من الاعمال التنكيلية التي يقوم بها جنود من الجيش الاسرائيلي يوميا على ارض الواقع، ويشير تقرير جريدة «يديعوت احرونوت» ان ظاهرة التقاط صور تذكارية مع جثث فلسطينيين اصبحت امرا مألوفا الى حين افتضاح الامر.

ولا غرو ان قيادة الاركان الاسرائيلية سعت جاهدة في اعقاب دروس الانتفاضة الاولى الى طرح مشروع اصدار قواعد اخلاقية ملزمة للجيش بكافة وحداته العسكرية. وكان هذا المشروع بهدف التغطية على سلوكيات الجيش تجاه الفلسطينيين العزل من السلاح والواقعين تحت الاحتلال. وبالفعل اصدرت القيادة العامة للاركان مجموعة قواعد عرفت بـ «اخلاقيات الجيش الاسرائيلي» واخذت الكليات الحربية والاكاديميات العسكرية بتدريس موضوع الاخلاقيات بشكل مكثف لاظهار طهارة السلاح الاسرائيلي وكون الجيش الاسرائيلي يمتلك صورة اكثر انسانية مما هي في ارض الواقع وكما تصورها وكالات الانباء .

والجيش، مثل كل جيش، هو اداة بيد الدولة، او هيئات اخرى، يعمل بوسائل هي في حد ذاتها غير اخلاقية، مثلا : القتل والتدمير هي من ابرز الوسائل التي يلجأ جيش ما الى استخدامها .ولتبرير كل ما يقوم به جيش من اعمال غير اخلاقية يستعملون تبريرات للدفاع عن اعماله غير الاخلاقية بكونها للدفاع عن المدنيين ومواجهة العدو وخطره على حياة هؤلاء المدنيين، بمعنى آخر دفاع عن عمل غير اخلاقي هو في حد ذاته امر مشروع في مواجهة عمل غير اخلاقي من الطرف الثاني، ومما لا شك فيه ان دولا كثيرة تستخدم الجيش لتحقيق غايات سياسية، ليست بحاجة الى مواجهة عدو او الوقوف في موقف الدفاع.

عندما حارب الجيش الاسرائيلي الجيوش العربية في العام ١٩٦٧ كانت المواجهة بين جيشين، وبعد الانتصارات الاسرائيلية التي حققها الجيش الاسرائيلي وانسحاب الجيوش العربية من الضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء وهضبة الجولان بقي الجيش الاسرائيلي لوحده امام تجمعات بشرية مدنية غير مسلحة، وواضح انه لحل هذه الاشكالية اوجدت الهيئات الدولية مواثيق مثل ميثاق جنيف لعام ١٩٤٩ ومن قبله ميثاق هاغ لعام ١٩٠٧، الا ان اسرائيل رفضت تبني المواثيق الدولية ، خاصة تلك التي لها علاقة بحالات المدنيين خلال حالة حرب او تحت الاحتلال، بدافع السيطرة على الاراضي وطرد الفلسطينيين وتحويل اراضيهم الى مستوطنات اسرائيلية . وبناء على هذه الوضعية تحول الجيش الاسرائيلي من جيش حارب في اطار ما يعرف بالاخلاق الحربية– العسكرية الى جيش يعمل مناقضة للاخلاق الحربية. وعليه يوجد الآن جيش يحارب مدنيين عُزّلا من وسائل الدفاع والحماية .

نحن في واقع الامر نواجه مسألة فكرية –فلسفية صعبة للغاية ، خاصة اذا كان محور الحديث له علاقة بالاخلاق، وبالطبع نواجه صعوبة في قياس هذه الاخلاق، ورغم هذا حاولت الدول وعدد من المفكرين وضع قواعد واسس اخلاقية لتعامل الجيوش في حالات الحرب وما بعدها ،وذلك في محاولة تصوير الحرب بمنظور انساني أكثر مما هو وحشي.

اسئلة كثيرة طرحت في الاعوام الماضية في كثير من الدول ومن بينها اسرائيل فيما له علاقة بموضوع اخلاقيات الحرب والجيش، واخذت هذه الاسئلة بالازدياد في اعقاب الحرب الاسرائيلية ضد لبنان العام ١٩٨٢ والانتفاضة الاولى (١٩٨٧–١٩٩٣). اسئلة تتعلق بأخلاق الحرب والقتال اثر مواجهات عنيفة بين الجيش الاسرائيلي والمقاومتين اللبنانية والفلسطينية ، صحيح ان المقاومة الفلسطينية في الانتفاضة الاولى تمتعت بخصوصية مدنية اكثر من حالة الانتفاضة الثانية ، وهذا لا ينقص من قيمة المقاومة الفلسطينية، اضف الى ذلك توالي الحوادث داخل وحدات عسكرية متألقة في الجيش الاسرائيلي اثناء تدريبات قامت بها (حادثة تسأليم وحادثة الطائرتين فوق مستوطنة شأر يشوف) ولجان التحقيق التي شكّلت في اعقابها اثارت من جديد وبزخم اكبر الاسئلة الاخلاقية المرتبطة بمسؤولية الجيش

جيش الاحتلال «يحرث» غزة

والتدريبات، اذ انه متفق عليه الا تقع حوادث اثناء التدريبات .

فيما يتعلق بإصدار «قواعد اخلاقية الجيش الاسرائيلي» يمكن الحديث عن عدة عوامل، منها :

اولا: تحول الجيش الاسرئيلي الى شفاف اكثر من السابق فيما يتعلق برأي الجمهور الاسرئيلي خاصة وتناول وسائل الاعلام المختلفة قطاعات من الجيش وفي مقدمتها تصرفات قيادات عسكرية، واستثمار هذه التصرفات لترويج وسائل الاعلام.

ثانيا: ظهور متزايد لقضايا اخلاقية في السنوات الاخيرة مما الزم ويلزم الجيش والسياسيين الاسرائيليين على توفير الاجابات .

ثالثا: انتقال الجيش الاسرائيلي الى مرحلة التمهن، مما يلزم بطبيعة الحال وضع قواعد واسس للعمل اسوة ببقية قطاعات الدولة، خاصة قطاعات التوظيف والاقتصاد، ومما لا شك فيه ان نموذج (موديل) الجيش الاميركي ترك اثره على الجيش الاسرائيلي في هذا الجانب ايضا .الموديل الاميركي لتمهن الجيش ظهر في اعقاب الهزائم في فيتنام.

ويجمع الباحثون في الامن القومي والعسكري الاسرائيلي انه من الصعوبة بمكان الاستمرار في حالة الجيش الاسرائيلي ما لم تطرح قضاياه وتناقش اجتماعيا وتنظيميا واقتصاديا بما في ذلك القضية الاخلاقية.

لن نتطرق في مقالنا هذا الى تعريفات « اخلاق الجيش» او «الاخلاق العسكرية» لأن ذلك ليس من اهتماماتنا هنا ، انما لتبسيط الموضوع اخترنا تعريفا تستخدمه المؤسسة العسكرية الاسرائيلية مما سيسهل علينا فهم وادراك سلوكيات الجنود والضباط الاسرائيليين في القضايا والنماذج التي سنتطرق اليها.

« القواعد الاخلاقية هي عبارة عن هوية الجيش ذاته. هي هوية مثالية تتمحور في الجيش ذاته،بما سيقوم بتأديته يوميا وفي كل لحظة. .. قواعد الاخلاق تفسح المجال امام الجندي لمعرفة كيف يتوجب عليه التصرف في حالات معينة وادراك لماذا كان يجب التصرف

هكذا».(الملحق الثاني لأخلاقيات الجيش الاسرائيلي في كتاب :أسا كاشر. الاخلاق العسكرية. اصدار الجامعة المذاعة التابعة لوزارة الدفاع الاسرائيلية. ١٩٩٦).

وبإيجاز فإن الاخلاق العسكرية تعني :« قواعد تقرر الحدود الاخلاقية الدقيقة التي يتوجب على الجيش التصرف بموجبها تجاه مجموعة محددة من البشر».

ولفهم اوسع واكثر دقة لحالة الاخلاق العسكرية في اسرئيل وما يشغله هذا الموضوع من مساحة النقاش العام الدائر في كافة المستويات وبين كافة الشرائح الاسرائيلية نورد ابرز القواعد والاسس الواردة في «اخلاقيات الجيش» كما اصدرته وزارة الدفاع الاسرائيلية بمصادقة الحكومة. ويتبع ذلك استعراض ابرز المشاهد التي تتفاعل على الساحة الاسرائيلية وتتناولها الصحافة الاسرائيلية خاصة ووسائل الاعلام الاخرى عامة، وردود الفعل المتعلقة بهذه الحالة الساخنة ، كما اسلفنا من قبل.

* «اخلاقيات» الجيش الاسرئيلي – قيّم وقواعد عامة

تتكون مجموعة الاخلاقيات من مقدمة مؤلفة من خمسة بنود، واحدى عشرة قيمة، واربع وثلاثين قاعدة.

تتطرق المقدمة الى «اخلاقيات الجيش» بكونها الموجه الاخلاقي الاساسي الذي بموجبه يتصرف ويسلك جنود الجيش، وقواده، ووحداته وكتائبه، وتلعب هذه دوراً بارزا في تصميم اشكال التحركات المستقبلية ، وتتم التربية بموجب هذه الروح نحو نقد ذاتي ونقد الاخرين.

وتستمد مجموعة الاخلاقيات مصادرها من : تراث الشعب اليهودي عبر العصور. وتراث دولة اسرائيل ومبادئها الديمقراطية وقوانينها ومؤسساتها، وتراث الجيش الاسرائيلي وتراث الحرب، بكونه جيشا للدفاع عن اسرائيل.

وتتطرق مقدمة مجموعة الاخلاقيات الى اشكالية وتعقيد العمليات الحربية عامة والقتالية خاصة، فمن المحتمل وقوع تصادم بين القيم واسس «اخلاقيات الجيش»، واثارة مسألة ايجاد التوازن المطلوب بين النظرية والتطبيق.

وتشير المقدمة بتأكيد واجب القيام بالمهمة والانتصار في الحرب. هذه تكون البوصلة الموجهة لإحداث توازن مقبول داخل شبكة القيم واسس «اخلاق الجيش»، والسير بموجب هذه البوصلة سيفسح المجال للمحافظة على الجيش كمؤسسة قيمية ذات جودة تقوم بأداء مهامها بشكل ملائم ومناسب للغاية.

اما مجموعة القيم فتم ترتيبها وفق الابجدية العبرية ما عدا الاولى وهي بعنوان «التمسك بالمهمة» لابراز ميزة الجيش كهيئة ملقى على عاتقها مهام الدفاع عن المواطنين ودولتهم..

١) التمسك بالمهمة.
٢) التحلي بالمسؤولية.
٣) الامانة.
٤) مثال شخصي.
٥) حياة الانسان.
٦) طهارة السلاح.
٧) مهنية.
٨) طاعة .
٩) اخلاص.
١٠) مندوبية.
١١)صداقة.

اما القواعد (الاسس) فهي عبارة عن توجيهات عملية في كيفية التصرف في ظروف معينة وهدفها تشجيع الجندي للعمل بشكل مناسب، وهي مكونة من ٣٤ قاعدة موزعة على النحو التالي:

الفصل الاول وفيه مادتان رقم ١ و٢ ، تربط بين قيم الجيش وقواعد عمل الجنود الاساسية.

الفصل الثاني ومواده من ٣–١٨ لها علاقة بكل جندي ومجندة خلال تأديتهم الخدمة العسكرية في الجيش سواء كانوا من صفوف المقاتلين ام لا .

الفصل الثالث ومواده من ١٩–٢٥ بعنوان «مواجهة العدو» خلال الحرب او وقوع عملية عسكرية او بعد حرب في مناطق يسيطر عليها الجيش.

الفصل الرابع ومواده من ٢٦ – ٣١ تحت عنوان «تجاه هيئات اخرى» عندما يكون نشاط الجندي في اطار المجتمع المدني.

الفصل الخامس ومواده من ٣٢–٣٤ لها علاقة بتصرفات الجندي خلال خدمته في الاحتياط او أي نشاط له علاقة في نهاية المطاف بالجيش.

وحسب المعطيات التي نشرتها «بتسيلم» حول الفترة الواقعة بين ايلول ٢٠٠٠ وكانون الاول ٢٠٠٣ تم فتح ٧٢ الف ملف تحقيق في جرائم قتل اطفال وبالغين وسرقات ونهب وتدمير قام بها الجيش الاسرائيلي او مستوطنون ، قدمت ١٣ لائحة اتهام فقط،اي ما يساوي ١٨.ر.٪ فقط، وتستخدم كل التقارير والتحقيقات عبارات موحدة تنطلق من السنة قادة الجيش او المتحدثين بإسمهم ، مثل: «نأسف لما حدث»، «حدث شاذ»، «خلل مؤسف»، «سنحقق»، «خطأ انساني»، الخ..

نحن لن نتطرق، كما اسلفنا، الى كل مركبات وبنود مجموعة الاخلاقيات هذه، انما بودنا اختيار ما له علاقة بما يجري في المشهد الاسرائيلي من صراعات ونقاشات حادة سواء داخل المؤسسة العسكرية او السياسية صاحبة القرار، أي الحكومة، وما تتناوله الصحافة .

بناء عليه سنعالج القيم التالية: المثال الشخصي،حياة الانسان وقدسيتها، وطهارة السلاح، والطاعة، وذلك من خلال نماذج وعينات حصلت على ارض الواقع حركت المجتمع الاسرائيلي من اقصى اليمين الى اقصى اليسار.

* جنود عراة، لكنهم مهمون

اربعة جنود قدامى من البحرية الاسرائيلية التقطت صورة لهم وهم عراة عند سفح جبل الشيخ في الشهر المنصرم. واعلن قائد الوحدة انهم لن يبقوا دقيقة واحدة في الجيش بسبب الاهانة التي سببوها للجيش وابتعادهم عن المثال الشخصي الذي يجب ان يتحلوا به. ولكن لم تمض ساعات قليلة على هذا القرار حتى دخلت القيادة العامة للاركان الى الصورة واعلنت عن تعديل في القرارات بناء على عدة معطيات من ابرزها كون الجنود من ابرز المقاتلين، ففيما لو تم استدعاؤهم للقيام بمهمة معينة فلن يتأخروا في تنفيذها على أتم شكل، بسبب خبرتهم وتجربتهم العسكرية من الماضي. بمعنى اخر بدلا من الاطاحة بهم من الجيش تمت عملية تنحيتهم لفترة ما، وفي اقوال قائد وحدة الكوماندو البحرية قال: «تصرفات هؤلاء ادّت الى وقوع خلل في الانماط والقواعد السلوكية التي كنا نتوقع منهم التمسك والعمل بها». وقرر تنحيتهم لفترة زمنية معينة كعقاب لهم. وهنا وقع التصادم بين ما قاله قائد الوحدة وما نطق به قائد الكتيبة التي يعمل بها الجنود الاربعة بأنهم لن يبقوا ولو لدقيقة واحدة في الجيش.

وصرحت قيادات كثيرة في الجيش ان القرار بتنحيتهم فقط يعتبر خطوة ايجابية في الحيلولة دون توسيع رقعة القرارات الصعبة في حالات سلوكيات واخلاقيات كهذه، وقيل في الجيش الاسرائيلي: «حالة جنون الاطاحة بالجنود في اعقاب تصرف كهذا». وطبيعي جدا ان هذا التصرف وما اعقبه من اقوال وردود فعل داخل المؤسسة العسكرية وخارجها يتناقض تماما مع القيمة الداعية الى كون الجندي «مثالا شخصيا». كان الدافع لقرار القيادة العسكرية الاحتفاظ بالجنود الاربعة هو كونهم اصحاب ماض عسكري مهم لا يمكن الاستغناء والتنازل عنه حتى لو قاموا بعمل غير اخلاقي مثل التقاط صور في حالة عري تام. بمعنى ان اهميتهم تغلبت على القيمة الاخلاقية الواردة في «اخلاقيات الجيش الاسرائيلي» والمعلن عنها رسميا امام كل الجنود عند تجندهم الى وحدات الجيش المختلفة .

* صور تذكارية مع اشلاء جثة فلسطيني، والشرطة العسكرية ستحقق

اثارت صورة الجنود الاسرائيليين مع اشلاء جثة فلسطيني، الرأي العام في اسرائيل وخارجها في اعقاب قيام مراسل صحيفة «يديعوت احرونوت» بالكشف عنها في شهر تشرين الثاني الماضي. وكتب الصحافي ايال غونين ما يلي :

« هكذا خلّد جنود من وحدة الناحال المتدينة التنكيل بجثة فلسطيني. الفلسطيني بريء، قتل بدم بارد. وطلب قائدة الفرقة ان يصوروه الى جانب الرأس المقطوع وفي فمه سيجارة. جثث «المخربين» جزء من البوم صور الجنود المقاتلين- صعب تصديق هذا الامر ، لكن هذه هي الحالة في جيش الدفاع الاسرائيلي» (٢٠٠٤/١١/١٧).

لقد قام احد ضباط الوحدة بالتقاط صور الجنود بكاميرته الخاصة وهم يقومون بالتنكيل بجثة الفلسطيني، وبعد الانتهاء من هذا المشهد

بالمقابل الحفاظ على طهارة السلاح وحياة الانسان وكرامته مهمة للغاية داخل حدود الجيش الاسرائيلي رغم ان الاعلان عن اخلاقيات الجيش يشير الى مجال اوسع بكثير في هذا الامر، وما دام الحديث عن الجيش الاسرائيلي فيجب حمايته وصيانته من الاخطاء الداخلية للحفاظ على لحمة جنوده ووحداته. وتأخذ القضايا الخارجية اهمية اقل، بل تنعدم في معظم الحالات، لكونها لا تمت بصلة مباشرة الى الجنود الاسرائيليين.
هذا التوجه يندرج في اطار الانتقائية الاسرائيلية لكيفية التعامل بمكيالين ولغتين ومفهومين

اعلن الضابط عن بيع الصور بمبلغ رمزي، وتقدم عدد من الجنود لشراء الصور، وقالوا ان هذا امر رائع وجذاب».

وتشير الصحافة الاسرائيلية الى ان هذا الحادث ليس الوحيد ولكنه الخطير بين سلسلة من الاعمال التنكيلية التي يقوم بها جنود من الجيش الاسرائيلي يوميا على ارض الواقع، ويشير تقرير جريدة «يديعوت احرونوت» ان ظاهرة التقاط صور تذكارية مع جثث فلسطينيين اصبحت امرا مألوفا الى حين افتضاح الامر.

الكل يتذكر حادثة قتل فلسطيني مدني بريء على حدود غزة في صيف العام ٢٠٠٣ ، وربط جثته بسيارة عسكرية وجرها الى نقطة تفتيش قريبة وقيام الجنود بإخراج كاميراتهم والتقاط الصور . ويطلقون على مثل هذه الحالة في اوساط الجنود« حافي» (اختصار بالعبرية لـ «حاف مبشاع» أي بريء من أي ذنب)، وتحولت عمليات التقاط الصور بشكل سريع الى نوع من المبارزة والمنافسة بين الجنود فيمن يلتقط صور اكثر عددا وافضل منظرا.

احد الجنود الاسرائيليين قال انه في احدى العمليات التي كان الجيش يقوم بها تم قتل فلسطينيين وجرهما الى القاعدة العسكرية ورميهما قرب المراحيض وكل من مر بقربهما التقط صورا وشد بشعر احدهما او ركله برجله.

وجندي آخر تحدث عن عملية قتل شرطيين فلسطينيين قرب نابلس وتبعثر اشلائهم في كل مكان ، وقيام عدد من الجنود الاسرائيليين بتجميع الاشلاء وسط اهازيج وفرح والتقاط صور تذكارية تم تناقلها بين جنود المعسكر.

بالمقابل جاء الرد الرسمي للجيش على النحو التالي: « يبدو ان هذه اعمال خطيرة يشجبها الجيش من اساسها. لقد رفع جيش الدفاع الاسرائيلي عاليا شعار «ان ننتصر ونبقى بشرا». ان قيم الاخلاق وطهارة السلاح واخلاقيات الجيش هي امور شرعية بعيوننا وبعيون المجتمع الاسرائيلي وسنسير بموجبها رغم الواقع المركب والصعب، وعلى ضباط الجيش وضع كل حالة ومأزق ومناقشتها».

وهناك من حاول تبرير هذه الاعمال البشعة سواء من داخل المؤسسة العسكرية او السياسية بالادعاء ان ظروف النشاطات العسكرية والضغوط والتوتر تؤدي الى مثل هكذا اعمال.

اما المتحدث الرسمي باسم حركة السلام الآن، فقال معقبا على نشر هذه الصور واقوال الجنود: «هذه شهادة حية مقلقة لتشويه القيم الاخلاقية وطهارة السلاح من قبل جنود الجيش الاسرائيلي، ويفقد جزء من الجنود انسانيتهم في كل مكان في العالم يسيطر فيه جيش على سكان مدنيين ويحتل اراضيهم».(«يديعوت احرونوت» ١٧/ ٢٠٠٤/١١).

واعلن رئيس هيئة الاركان العامة يعلون « هذه اعمال خطيرة وستقوم الشرطة العسكرية بالتحقيق فيها ومعاقبة كل من له ضلع»، وحاول تبرير فعلة الجنود البشعة بأنهم في حالة حرب والحرب ليست سهلة وان هذه الحرب فرضت على الاسرائيليين وعلى الضباط والقيادة توضيح هذا الامر للجنود.

وحتى ساعة كتابة هذا المقال لم ينشر أي تقرير فيه خلاصة لها علاقة بفضيحة الصور التذكارية، ويبدو بوضوح للغاية ان الشارع العام الاسرائيلي لم يتحرك بما فيه الكفاية لشجب ورفض هذه الفعلة.

ضباط في الجيش الاسرائيلي رفضوا شجب هذه الظاهرة، بعض الضباط ابدى تفهمه لما قام به الجنود، وبعض اخر طالب بالتربية وقلة نادت بالعقاب الفعلي. وبلغ الامر بأحد الضباط ان قال ان هذه

الفعلة هي جزء من ترفيه الجنود الاسرائيليين، وان التقاط صورة مع جثة ما هو الا لغاية التذكار ليس الا .

من الواضح تماما محاولات التبرير من قبل المؤسسة الاسرائيلية العسكرية والسياسية على حد سواء، والاعتقاد لدينا ان هذه الظاهرة السلبية تزامنت مع فضيحة صور الجنود الاميركيين في سجن ابو غريب في العراق والتي اثارت ردود فعل قوية للغاية في العالم اجمع بما فيها البيت الابيض ، ولكنها لم تدم فترة طويلة من حيث فاعليتها الاعلامية اذ احتلت مكانها مواضيع اعلامية جديدة ونحيت جانبا، هكذا حصل لقضية الصور التذكارية في اسرائيل اذ تم تنحيتها جانبا وابراز قضايا اعلامية جديدة.

وتبقى مسألة مدى تمسك الجيش الاسرائيلي بثوابت الاخلاق التي تبناها في العام ١٩٩٤ وتم تعميمها على كل وحدات الجيش الاسرائيلي. هذا من جهة، والى أي مدى يثقف ويربى الجندي على اخلاقيات الجيش ام انها مسألة رسمية عابرة ؟ هذا ما اوضحته وكشفته اعمال التنكيل البشعة التي قام بها جنود مع ضباطهم في عدة وحدات عسكرية في الجيش الاسرائيلي في الاعوام الماضية .

* شارون : جنود جيش الدفاع الاسرائيلي الاكثر اخلاقية !!

لم تسعف شارون محاولاته في الدفاع عن جيشه بقوله انه الجيش الاكثر اخلاقية في العالم. اذ سرعان ما اعلن الجيش ان ٢٩ فلسطينيا قتلوا على يد الجيش وهم ابرياء . بينما اعلنت منظمة «بتسيلم» ان ١٤٨ فلسطينيا غير مسلحين قتلوا في العام الماضي على يد جنود الجيش الاسرائيلي بدون أي سبب، وتشير «بتسيلم» الى ان هذا العدد لمنطقة الضفة الغربية فقط .

وتصطدم محاولات شارون التبريرية بعوالم المصطلحات التي يتبناها الجيش الاسرائيلي ليظهره بمظهر الجيش الاخلاقي والاكثر انسانية في العالم. يقول شارون: «اقترح على الجميع عدم الدخول في حالة فزع، يعمل جنود جيش الدفاع الاسرائيلي في حالة صعبة ويواجهون قتلة اشراراً جداً- وهم (أي الجنود) الاكثر اخلاقية امام أي جيش آخر أعرفه في العالم».و «يجب على الجميع تقدير ما يقوم به هذا الجيش وفهم الصعوبات التي يواجهها ».(«يديعوت احرونوت» ٢٠٠٤/١٢/٨).

محاولات الدفاع عن ظاهرة التقاط الصور وقتل الفلسطينيين الابرياء لم تسعفه كثيرا في وسائل الاعلام التي انهالت بشكل واسع في فحص مسائل اخلاقية تطرحها المؤسسة العسكرية ولا تقوم بالتقيد بها او حتى التحقيق بها والتوصل الى نتائج.

وحسب المعطيات التي نشرتها «بتسيلم» حول الفترة الواقعة بين ايلول ٢٠٠٠ وكانون الاول ٢٠٠٣ تم فتح ٧٢ الف ملف تحقيق في جرائم قتل اطفال وبالغين وسرقات ونهب وتدمير قام بها الجيش الاسرائيلي او مستوطنون ، قدمت ١٣ لائحة اتهام فقط،اي ما يساوي ١٨ .ر.٪ فقط، وتستخدم كل التقارير والتحقيقات عبارات موحدة تنطلق من السنة قادة الجيش او المتحدثين بإسمهم ، مثل: «نأسف لما حدث»، «حدث شاذ»، «خلل مؤسف»، «سنحقق»، «خطأ انساني»، الخ...(هشام نفاع،«لم يجر التحقيق في قتلهم» الاتحاد، ٢٦/١١/ ٢٠٠٤)

لهذا وقع النقاش حول تصوير الجيش بكونه يحافظ على طهارة السلاح بمفاهيم شارون وزمرته العسكرية المتمسكة بتبرير كل عمل يقوم به الجنود من منطلق ان اسرائيل في حالة حرب مع ارهابيين – هم في هذه الحالة الفلسطينيون، علما انه بموجب المتعارف عليه دوليا وقانونيا ان الجيش الاسرائيلي يحارب جمهورا واقعا تحت الاحتلال ولا يملك من الاسلحة الدفاعية الا القليل.

وعليه فإن اقوال شارون العسكري تلقى موقعا جيدا في الاوساط الاسرائيلية بكونه رجلا ثقة وصاحب خبرة، وهو جند خبرته الواسعة بجيوش العالم فوجد ان الجيش الاسرائيلي هو الاكثر اخلاقية في العالم . تصريح كهذا يبدو انه كاف لتخفيف حدة الهجوم على المؤسسة الاسرائيلية وبالتالي تنفيس الضغط الجماهيري واشارة غير مباشرة الى الانتقال الى موضوع آخر .

* معاقبة جنود لاعتدائهم على جنود أمر ضروري واخلاقي للغاية

اصدرت محكمة عسكرية في شهر كانون الاول الماضي قرارها بقضية اعتداء جندي على جندي زميل له في العام ٢٠٠٢ وذلك ان ثلاثة جنود اتهموا بالتنكيل بزميل لهم في نفس الوحدة العسكرية بواسطة صفعة بالايدي على وجهه وضربه بمكنسة الى ان تكسرت،

واهانته جسديا، ولم يشفع له صراخه واستنجاده بآخرين. ولم يتجرأ الجندي المضروب على تقديم شكوى الى الشرطة العسكرية الى ان عرف ذووه بذلك وهم قاموا بتقديم الشكوى بأنفسهم .

وصرح في هذه القضية ضابط كلف بالتحقيق فيها ان: «هذا الحادث قريب من خط التماس مع اهانة كرامة الانسان، ولا يتساوى مع الانماط والقيم المتوقعة من الوحدة المحاربة»، وقرر الضابط ابعاد الجنود الثلاثة من المشاركة في عمليات قتالية او قيادية، وقرار المحكمة النهائي كان كما يلي: عقوبة السجن مع وقف التنفيذ، تنزيل الرتب العسكرية الى درجة نفر، وغرامة بقيمة ٧٥٠ شيكلا، واخذت المحكمة بعين الاعتبار كون الجنود انهوا خدمتهم في الجندية وانهم اندمجوا في الحياة المدنية.

ورغم اتساع رقعة نشاط رافضي الخدمة الا انهم في عداد المنبوذين مجتمعيا في المشهد الاسرائيلي، وادعاءاتهم غير مقبولة او مقنعة عند متخذي القرار، وواضح انهم خارج الاجماع الاسرائيلي لكون الخدمة مسألة مقدسة لا نقاش فيها ولا تنازل عنها بكونها جزءا من تكوين الدولة، هذا التكوين هو في حد ذاته اسبرطي للغاية، بمعنى تكوين عسكري

وتشير الاحصائيات العسكرية الى ان اعمال التنكيل بين الجنود آخذة بالازدياد تعزى إلى الظروف النفسية التي يمر بها الجنود في قتالهم في بيئات سكنية في الضفة الغربية وغزة، ولكن لم يصل الحكم في اعمال التنكيل بجنود على يد جنود الى درجة اصدار احكام شديدة للغاية وقاسية كالسجن الفعلي والغرامة المالية العالية.

بالمقابل الحفاظ على طهارة السلاح وحياة الانسان وكرامته مهمة للغاية داخل حدود الجيش الاسرائيلي رغم ان الاعلان عن اخلاقيات الجيش يشير الى مجال اوسع بكثير في هذا الامر، وما دام الحديث عن الجيش الاسرائيلي فيجب حمايته وصيانته من الاخطاء الداخلية للحفاظ على لحمة جنوده ووحداته. وتأخذ القضايا الخارجية اهمية اقل، بل تنعدم في معظم الحالات، لكونها لا تمت بصلة مباشرة الى الجنود الاسرائيليين.

هذا التوجه يندرج في اطار الانتقائية الاسرائيلية لكيفية التعامل بمكيالين ولغتين ومفهومين، وطبيعي ان ينسحب هذا القول على مختلف قطاعات الحياة داخل اسرائيل، فالتعامل مع العرب الفلسطينيين مواطني اسرائيل مختلف عن التعامل مع اليهود مواطني اسرائيل في مجالات السكن والتربية والتعليم والتوظيف وحقوق مؤسسة التأمين الوطني وغير ذلك.

ازدواجية الرؤية والتعامل جزء من المؤسسة العسكرية والسياسية الاسرائيلية وبالتالي تنعكس على سلوكيات الشرائح الجماهيرية بكاملها تقريبا ، فتنفعل وتتفاعل مع موجهات القيادتين السياسية والعسكرية ، والتي هي في نهاية الامر مؤسسة واحدة تقودها طغمة سياسية متعسكرة.

* احتضان الوظيفة أم تسلية ونفور؟ !

من المعروف ان من يحب مهنته او وظيفته ان يكون متمسكا بتفاصيل تدبيرها وادارتها والتعامل معها وكأنها جزء منه، اضف الى ان تعامله يكون مبنيا على قواعد واسس سلوكية متفق عليها في الراي العام ، وتصبح مألوفة داخل المجتمع. وهذا التوجه يُعرف بلسان علماء الاجتماع بـ «احتضان الوظيفة» أو «عشق الوظيفة» .

ولو قمنا بتفحص سلوكيات الجنود الاسرائيليين عند الحواجز المنتشرة بالمئات في مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة لتبين لنا عمق المأزق الذي يعيشه الجنود وكيفية انعكاس هذه المآزق على سلوكياتهم تجاه الفلسطينيين.

وكانت جريدة «واشنطن بوست» خصصت تقريرا صحافيا مفصلا حول سلوكيات الجنود الاسرائيليين تجاه الفلسطينيين تم نشره في نهاية شهر تشرين الثاني الماضي.

ووصفت الصحيفة وقوف الفلسطينيين عند مداخل الحواجز بأنهم كـ «قطعان الابقار»، والمتفحص لما يجري عند الحواجز يرى صورة عبثية للغاية ، اذ تبين ان الجنود يتصرفون بشكل غير انساني في غالب الاحوال او يلجأون الى المزاح الفاضح والبعيد عن طبيعة الوظيفة او المهمة الملقاة على عاتقهم.

ها هو محمد يوسف يخرج من سيارة الاسعاف حاملا اوراقا طبية يقدمها لجندي الحاجز كي يفسح المجال للسيارة بالعبور دون تأخير ، فجاءه جواب الجندي: « لن اسمح لك بالعبور حتى لو احضرت الله معك».

طبعا، حوادث كهذه ليست غريبة او نادرة بالنسبة للمشهد العام السائد عند الحواجز، الا ان اللقاء الاهم بين الاسرائيليين والفلسطينيين يجري عند الحواجز العسكرية بالقرب من فوهات البنادق والرشاشات، وطبيعي ان تترك هذه اللقاءات اثرها على الطرفين ، كل واحد بطريقته الخاصة.

وتبين من الاستفتاءات التي اجريت في اوساط الجنود

إخلاء المستوطنين

الاسرائيليين انهم يفضلون العمليات القتالية من ان يقفوا لساعات طويلة عند الحواجز يتناقشون ويتقارعون مع مختلف شرائح الفلسطينيين المارين عبر الحواجز.

ويبدو أن شدة الضغط النفسي الذي يعيشه الجنود والمهام غير الانسانية التي تلقى عليهم تترك اثرا غير مباشر على سلوكهم باتجاه تبني سلوكيات وتصرفات مخلة بالاخلاق العامة والخاصة . وهذا دليل على تدني القواعد الاخلاقية المعلن عنها في قوانين السلوكيات والاخلاقيات في الجيش الاسرائيلي، اضف الى ان توالي المهام العسكرية، خاصة تلك المتعلقة بالحواجز ولدت نوعا من كراهية المهنة او المهمة وبالتالي الى توجه لا علاقة له بمهمة جندي عند الحاجز .

لتوضيح هذه الناحية على وجه التحديد، ما قام به جندي عند حاجز عسكري قرب نابلس في شهر كانون الاول الماضي، اذ انه لحظ وجود فتاة فلسطينية جميلة الملامح اسرت قلبه فتعمد تأخيرها مع عائلتها لساعات طويلة، ومما زاد الطين بلة ان هذه الجندي لم يتمالك نفسه حيث استخدم مكبر الصوت مناديا الفتاة «انا احبك، اريدك الزواج منك» ذاكرا اسمها وعلى مرأى ومسمع من مئات الاشخاص المنتظرين عند الحاجز.

وفي حادث اخر ، قامت فرقة عسكرية اسرائيلية بفرض منع التجول على بلدة طلوزة والزموا السكان بالمكوث في بيوتهم وامروا اصحاب المحال التجارية اغلاق محالهم واغلقوا المدرسة في البلدة، وكل هذا بإدعاء وصول معلومات اخبارية بوجود مخربين، على حد قول الجنود. ولما تم التوجه بعد ايام الى الادارة المدنية في الجيش الاسرائيلي تبين انهم لا يعرفون بوجود منع تجول في تلك البلدة. كل ما هنالك انه فرض منع تجول ليومين خلال الشهر الماضي فقط ولساعات محددة. («يديعوت احرونوت» ٢٠٠٤/١٢/٢٢).

يظهر بوضوح من خلال هذا الحادث مدى كراهية الجنود للاوامر الملقاة على عاتقهم وذلك بفعل تشددهم في تنفيذ المهام ارضاء

لقيادتهم وللظهور كأبطال، لكن الواقع يشير الى غير ذلك ، يشير الى رفضهم احتضان المهمة المحددة والتصرف بما هو متجاوز للمهمة .

وهناك من يميل الى الاعتقاد انه تكونت لدى الجنود جراء الاحوال القائمة والجارية على ارض الواقع داخل اسرائيل وفي مناطق السلطة الوطنية الفلسطينية، تكونت لديهم مجموعة من السلوكيات السادية . ومما لا شك فيه ان جاهزية الجندي قائمة في مثل هذه الحالات والسلوكيات من هذا النوع، لننظر الى هذه الحالة :« خمسة من جنود حرس الحدود متهمون بضرب فلسطينيين وسكب بول وروث على وجوههم واطفاء اعقاب سجائر على اجسادهم، وتفاصيل الحادث ان الجنود الخمسة اعتقلوا فلسطينيين في حاجز قرب ابو ديس وساقوهما الى بناية مهجورة وهددوهما واطفأوا اعقاب السجائر في جسديهما، ولم يكتفوا بهذا بل انهم جمعوا بولهم في زجاجات وسكبوه على وجهي الفلسطينيين، واخذوا من احد الفلسطينيين بطاقته الممغنطة والقوها ارضا وطلبوا منه التقاطها بفمه، ثم امروهما بغسل جسديهما بالصابون دون الماء واخيرا الزموهما القفز من الطابق الثاني من البناية ذاتها.(موقع نعناع بتاريخ ٢٠٠٤/٩/٢٧).

لا شك ان مثل هذا السلوك ينضوي تحت قائمة التنكيل اللاحق بالفلسطينيين في كل مكان في المناطق المحتلة على يد الجيش الاسرائيلي، ولكن المتمعن والمتتبع يلحظ مدى ابتعاد الجنود عن القيام بمهام عسكرية من المفروض ان يقوم بها أي جيش طبيعي في العالم.

حالة الاحتلال والاحتكاك المباشر واليومي مع المجتمع المدني الفلسطيني حولت عمل الجنود الى مواجهات مع مدنيين مما افقدهم بوصلة الاخلاقيات العسكرية، وحصول حالة من التيه في نوعيات السلوكيات وكيفية التعامل مع الشرائح المجتمعية الفلسطينية غير المسلحة .

التيه والضياع الاخلاقي –دون تبرير ذلك– مسيطر على قطاعات واسعة من الجنود الذين يحملون احمالا نفسية واجتماعية وسلوكية صعبة للغاية. وهناك من الباحثين والدارسين في مؤسسات البحث والاعلام في اسرائيل، يعتقدون ان الجنود الاسرائيليين الذين يخدمون في الحواجز او الدوريات سيواجهون مشقات في نقل الصورة الحقيقية لاولادهم او للاجيال القادمة عن الجيش الاسرائيلي حامل الصورة الرائعة والجميلة بكونه «افضل واحسن الجيوش في العالم تمتعا بالاخلاق» على حد اقوال شارون رئيس وزراء اسرائيل.

* حفلات نهاية الخدمة، ترقية جنود، واستمرار قتل فلسطينيين

يبدو ان حفلات نهاية خدمة جنود وضباط في مواقع عسكرية معينة ما هي الا شكل اضافي من متابعة عمليات عسكرية ضد فلسطينيين، هذا ما حصل مؤخرا مع وحدة غفعاتي اثناء قيامها بمسيرة وداع مفرحة، اذ ان عددا من جنود هذه الوحدة قاموا بإطلاق نيران نحو حقول مزروعة في غزة مما ادى الى اصابة الفتى خالد ماضي بصلية من الرصاص لفظ انفاسة للتو. وتزامنت الاحداث المتعلقة بهذا الامر مع ترقية ضابط الوحدة الى رتبة عالية في الجيش الاسرائيلي، واعلنت قيادة في الجيش انها ستقوم بالتحقيق في الحادث بعد تجميع عدة شهادات وبينات لها علاقة بالحادث.

وسرعان ما كشف النقاب عن قيام فرقة من الجنود الاسرائيليين بإعدام فلسطيني اعزل في قباطية (بمحافظة جنين)، وهذه القضية وغيرها كثير تضع على المحك اليومي اخلاقيات الجيش الاسرائيلي وطهارة السلاح، هذان الموضوعان اللذان يجري الحديث عنهما في المشهد الاسرائيلي منذ ان تبنى الجيش اسس وقواعد وقيم اخلاقية في التسعينيات .

وافاد ضباط في وحدة غفعاتي ان حادث الفتى خالد الماضي قاس ومؤلم، ولكنه لم يكن هناك أي داع الى وقوع الحادث فيما لو تقيد الجنود بالتعليمات المتعلقة باطلاق النار، ومما ورد في البيان التلخيصي للتحقيق العسكري الذي اجرته وحدة التحقيقات في الجيش انه لا توجد أي موانع في الاعلان عن الترقية لقائد الوحدة، ولتبرير فعلة الجنود قال المتحدث الرسمي في الجيش الاسرائيلي ان المنطقة التي تواجد فيها الفتى ووالده وعدد آخر من الاشخاص تعتبر منطقة «معادية». ويبقى السؤال ماذا كان يفعل جنود في منطقة معادية ليس ضمن عملية عسكرية؟!

ومن المعروف انه اثناء قيام الجيش بالتحقيق في حادث ما تتجمد الترقيات او تتأخر، الا انه في مثل هذه الحالة لم يصدر قرار نهائي في التحقيق لذا فإن الترقية سارية المفعول.

واضح ان هذه الحالة كغيرها من احداث وحالات جرت وتجري

من وقت لآخر ترتفع اصوات اسرائيلية ليست مسموعة في كثير من الاحوال تنادي بإنقاذ الجنود من التعفن الاخلاقي اللاحق بهم، فالجنود سينطلقون بعد نهاية القضية الى العمل داخل المجمعات البشرية المدنية، فهل سيكون تعاملهم مبنيا على أسس حماية حياة الانسان ام انهم يتحولون الى جنود بلباس عسكري؟ يبدو ان هذا الامر يقلق الشارع العام في اسرائيل. أي صورة مجتمع ستستقبل اسرائيل فيما لو انتهت القضية؟.

ومن جهة اخرى فإن إحداث تغيير جذري على صورة الجيش الاسرائيلي بكونه الافضل في العالم من الناحية الاخلاقية والانجازية تبدو مسألة ليست سهلة وبعيدة عن الواقع الحالي

في الجيش الاسرائيلي تندرج في قائمة التلفيق والتغطية والاقصاء ، بمعنى تنحية واقصاء الحالات التي من الممكن ان تترك اثرا على ترقية وتقدم عدد من الضباط. وهذه لا تتوافق مع قواعد الاخلاقيات المعلن عنها في الجيش الاسرائيلي وسواه من الجيوش في العالم. أي انه يوجد فارق شاسع بين ما هو مطروح على الورق الرسمي للمؤسسة العسكرية وبين ما يجري على ارض الواقع. ورغم كل محاولات التلفيق والقاء التهم بالمسؤولية الفلسطينية الا ان مسؤولية الجيش لا تلغى في تحمل كل ما يجري ضد مدنيين فلسطينيين عُزّل من السلاح .

من وقت لآخر ترتفع اصوات اسرائيلية ليست مسموعة في كثير من الاحوال تنادي بإنقاذ الجنود من التعفن الاخلاقي اللاحق بهم، فالجنود سينطلقون بعد نهاية القضية الى العمل داخل المجمعات البشرية المدنية، فهل سيكون تعاملهم مبنيا على أسس حماية حياة الانسان ام انهم يتحولون الى جنود بلباس عسكري؟ يبدو ان هذا الامر يقلق الشارع العام في اسرائيل. أي صورة مجتمع ستستقبل اسرائيل فيما لو انتهت القضية؟.

ومن جهة اخرى فإن إحداث تغيير جذري على صورة الجيش الاسرائيلي بكونه الافضل في العالم من الناحية الاخلاقية والانجازية تبدو مسألة ليست سهلة وبعيدة عن الواقع الحالي .ومن الثابت ان هذه المسألة تحتاج الى وقت طويل ريثما يقتنع المجتمع او على الاقل شرائح مركزية فيه ان تغييرات اخلاقية قد حصلت داخل المؤسسة العسكرية مما حولته الى جيش يحتاج الى اعادة فحص قواعده الاخلاقية من جديد.

وتنسحب مسألة رفض الخدمة مع هذا السياق، اذ ان قدسية الجيش مستولية على الذهنية الاسرائيلية بالكامل ، ولا تستطيع تقبل رفض الخدمة على وجه الاطلاق، الا ان رافضي الخدمة انطلقوا من منطلقات انسانية وضميرية ونفسية معا او بأشكال منفردة .

ورغم اتساع رقعة نشاط رافضي الخدمة الا انهم في عداد المنبوذين مجتمعيا في المشهد الاسرائيلي، وادعاءاتهم غير مقبولة او مقنعة عند متخذي القرار، وواضح انهم خارج الاجماع الاسرائيلي لكون الخدمة مسألة مقدسة لا نقاش فيها ولا تنازل عنها بكونها جزءا من تكوين الدولة، هذا التكوين هو في حد ذاته اسبرطي للغاية، بمعنى تكوين عسكري ، وبالتالي التعامل مع المتغيرات من منطلقات عسكرية.

والاصوات المنادية بمحاكمة رافضي الخدمة تتعالى يوما بعد يوم، رغم ملاحظتنا لزيادة بسيطة في تفهم لهؤلاء من قبل بعض المفكرين ورجال الاعلام رغم تعرضهم الى صليات من الهجوم القاسي والصعب من المؤسسة السياسية–العسكرية والاعلامية بكونهم قد خرجوا عن القطيع.

* التذكير بأوشفيتس

صرح رئيس قسم القوى البشرية في الجيش الاسرائيلي الجنرال اليعازر شطيرن في مطلع شهر كانون الاول الماضي «انه يتوجب على كل ضابط ان يرى نفسه خريجا من اوشفيتس بمفهومين: الا نفعل ما فعلوه لنا – وان ما فعلوه لنا لا يتم فعله» («يديعوت

احرونوت» ٢٠٠٤/١٢/٧).

هذه الاقوال نطق بها الجنرال شطيرن امام لجنة الدستور التابعة للكنيست الاسرائيلي اثناء مناقشة مسألة حقوق الانسان وطهارة السلاح في مواجهة ما يسمى الارهاب. والملفت للانتباه في سياق اقواله ان «٢٠٪ من الجنود الاسرائيليين المجندين حديثا يعتقدون ان حياة العربي لا قيمة لها كحياة اليهودي»، هؤلاء يدخلون الى الجيش مع هذه الخلفية التي تلقى تطورا كبيرا ورعاية من خلال العمليات العسكرية التدميرية التي يقوم بها الجيش الاسرائيلي في القرى والمدن الفلسطينية، بمعنى آخر ان مسألة قيمة حياة الانسان المعلن عنها في قواعد اخلاقيات الجيش لا تحتاج الى امتحان كبير، فجنرال كبير في الجيش يصرح بلسانه عن هذه المعطيات، التي من المفروض ان تقلق المجتمع الاسرائيلي والفلسطيني على حد سواء.

ولتوضيح مسألة التربية في الجيش الاسرائيلي نستعرض هنا ما جرى مع قائد الدائرة اللوجستية في الجيش الجنرال عامي شوحاط والذي تناقلته الصحف الاسرائيلية في تشرين الثاني الماضي.

وللاشارة يقوم الجنرال شوحاط وعدد من الضباط العسكريين بتقديم سلسلة من المحاضرات امام مجموعات من الجنود الاسرائيليين في قواعد عسكرية او في مواقع استحكاماتهم كجزء من عملية التربية العسكرية التي يقوم بها الجيش الاسرائيلي.

« جاءت تصريحات شوحاط قائد الدائرة اللوجستية في منطقة المركز في الجيش امام جنود احتياط في قاعدة تسريفين: لقد قمنا بنقل اربعة صهاريج ماء للجنود العاملين في جنين اثناء عملية السور الواقي. وسأكشف النقاب عن شيء امامكم. لقد صادرنا للحثالات الفلسطينيين صهريج ماء في جنين لصالح الجنود. من ناحيتي يمكنهم ان يموتوا عطشاً».

وقال مجند اسرائيلي في الاحتياط كان موجودا في المحاضرة، إن محاضرة شوحاط كانت ملئى بعبارات تحقير العرب، من بينها «كل العرب حثيرون، قمامة»، ، « حثالات»، «الحثالة توفي (القصد الرئيس المرحوم ياسر عرفات)، ولكن سيأتي حثالة آخر مكانه».

وقد تواجد اثناء المحاضرة ٤٠ مجندا بينهم كولونيل ايضا، وكان رد فعل المجندين حسبما نقل جندي الاحتياط للموقع الالكتروني الاسرائيلي(واللا) هو «الضحك ولم يعترض احد منهم على تصريحاته» . واكد الضباط ان شوحاط تفاخر امامهم بأنه سيتم تعيينه ضابطا مسؤولا عن جنود الاحتياط في الجيش الاسرائيلي.

وسرعان ما تطفو محاولات تبرير وتوضيح مقاصد هذا الجنرال وغيره، حيث اعلنت مصادر عسكرية في الجيش الاسرائيلي ان الضابط شوحاط قصد رجال المقاومة الفلسطينية والمسؤولين عن «الارهاب»، وليس كل الفلسطينيين، واضح للغاية محاولات اعادة الضابط الى سياق القطيع الاخلاقي وضبط سلوكياته وفق مفاهيم الجيش الاسرائيلي للاخلاقيات.

وبالمقابل اعلن امين عام حركة «السلام الآن» ياريف اوبنهايمر «اقوال الضابط شوحاط عنصرية في اساسها، وعلى الجيش ارساله الى دورة خاصة من اجل ان يتعلم فيها القيم التربوية» .(راجع موقع عرب ٤٨ بتاريخ ٢٠٠٤/١١/٢٦).

هذا الرد يعكس الفجوة الكبيرة القائمة داخل الجيش فيما يتعلق بالاخلاقيات المعلن عنها. المقصود هنا رفض، غير معلن عنه، لتبني القيم والقواعد الاخلاقية المعلن عنها وما يجري على ارض الواقع. او يمكننا اعتبار مثل هذا السلوك والامثلة المشابهة الكثيرة، انها دليل قاطع على رفض قواعد الاخلاقيات ، او انها منبوذة لكونها تقيد الجيش وضباطه بمفاهيم معينة .

* وأخيرا....

المقال اعلاه ليس الاخير في هذا السياق الساخن المتعلق بأخلاقيات الجيش الاسرائيلي وطهارة السلاح، ما زالت الصحافة الاسرائيلية والاعلام الاسرائيلي عامة وغيره تتعرض لهذه القضايا يوميا وسط تخبطات عميقة تصيب المجتمع الاسرائيلي الرافض رؤية صورة اخرى عن جيشه وجنوده.

ورغم هذا الامتناع المجتمعي الكلي فإن تغييرات اخلاقية ونفسية تحصل داخل المؤسسة الاسرائيلية وستترك اثارها بعد مدة من الزمن على ميادين تربوية واجتماعية واقتصادية وسياسية .

مما لا شك فيه ان محاولات إظهار المؤسسة العسكرية بكونها عفيفة ستلاحق المسؤولين الاسرائيليين السياسيين والعسكريين على حد سواء، ولكن هذه العفة لن تصمد في امتحان الواقع الجاري في الميدان، وهذا ما ستكشفه الاحداث المقبلة .